﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: 93]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبطُ بينَ صِدْقِ الكتابِ المنزَلِ، وبينَ وعيدِ منِ ادَّعى زورًا أنَّه مرسَلٌ إليهِ

مناسبةُ هذه الآية لما قبلَها: أنَّ الله ﷻ "لمّا ذَكرَ القرآنَ وأنَّه كتابٌ مُنَزَّلٌ من عندِه مبارَكٌ، أَعْقَبَه بوعيدِ منِ ادَّعى النُّبوَّة والرِّسالةَ على سبيلِ الافتراء"[1]، ومن المناسبة ما ذكره البِقاعيُّ بقوله: "لمّا كان في قولهم: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ صريحُ الكذبِ، وتضمَّن تكذيبَه وحاشاه ﷺ، أمَّا من اليهودِ فبالفعل، وأمَّا من قريشٍ فبالرِّضا، وكان بعض الكفرة قد ادَّعى الإيحاءَ إلى نفسه إرادةً للطَّعْن في القرآن؛ قال تعالى مُهَوِّلًا لأمرِ الكذب، لا سيَّما عليه"[2]: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ الآية.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: (فرا) (فَرَى) أصلٌ يدلُّ على قَطْعِ الشَّيْءِ، يُقَالُ: فَرى فلانٌ كذبًا؛ إذا خَلَقَهُ، وافْتَراهُ: اختَلَقَهُ، والاسم الفِرية. الفَرْيُ: قطعُ الجلدِ للخَرْزِ والإصلاحِ، والإِفْرَاءُ للإفسادِ، والافْتِرَاءُ فيهما وفي الإفساد أكثرُ، وكذلك استُعْمِلَ في القرآن في الكذب والشِّرك

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/585، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/450 - 451، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/373.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/189، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/66.

والظُّلم، فمن الكذب قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ [المائدة: 103][1]، فالافتراءُ: بمعنى الاختلاقِ[2].

2) ﴿أُوحِيَ﴾: (وحى) أصلٌ يدلُّ على إلقاء علمٍ في إخفاءٍ أو غيره إلى غيرك، والوَحْيُ: الإشارة، والكتابة، والرِّسالة، والإلهام، والكلام الخفيُّ، وكلُّ ما ألقيتَه إلى غيرك، يقالُ: وَحَيْتُ إليه الكلامَ وأوْحَيْتُ، وهو أن تكلِّمَه بكلامٍ تُخفيه، ويقال للكلمة الإلهيَّة الَّتي تلقى إلى أنبيائه وأوليائه: وَحْيٌ[3]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ [طه: 114]: أنَّ الوحي من القرآن بيانه، وقد يكون فَرَائِضَهُ، وَحُدُودَهُ، وَأَحْكَامَهُ، وَحَلالَهُ، وَحَرَامَهُ.[4].

3) ﴿غَمَرَٰتِ﴾ (غمر): أصلٌ يدلُّ على تغطيةٍ وسَترٍ في بعض الشِّدَّة، من ذلك الغَمْرُ: الماءُ الكثير، وسمِّي بذلك لأنَّه يغمُر ما تحته، وغَمَرَه الماء يَغْمُرُهُ، أي: علاه، والغَمْرةُ: الشِّدَّةُ، وغَمْرةُ كُلِّ شَيْءٍ: مُنْهَمَكه وشدَّتُه كغَمْرةِ الهَمِّ وَالمَوْتِ وَنَحْوِهما، وغَمَراتُ الحَرْب وَالمَوْتِ وغِمارُها: شَدَائِدُهَا[5]. وقوله تعالى: ﴿غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾، غمراتُ الموت: جمع غَمْرَةٍ، وهي شدائدُهُ وسَكَراتُه[6]، قال الشَّاعر:

وَمَا يَكْشِفُ الغَمَّاءَ إلَّا ابنُ حُرَّةٍ *** يَرَى غَمَرَاتِ المَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا[7]

يقال: خاضَ غمراتِ القتال: اقتحم أهوالَه، وغِمار الحياة: تقلُّباتها، وغَمَرات الموت: شدائدُه، ومكارهه، وسكراته[8].

4) ﴿بَاسِطُوٓاْ﴾: (بسط) أصلٌ يدلُّ على امتدادِ الشَّيء، بسط الشَّيء: نشرهُ، وبَسْطُ اليد: مدُّها، قال ﷻ: ﴿وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۖ﴾ [الكهف: 18]، وبَسْطُ الكفِّ يستعمل للأخذ، نحو: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾[9].

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (فرا)، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فرى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/374.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وحى).
(4) يحيى بن سلام، تفسير يحيى بن سلام، تح: هند شلبي: 1/282.
(5) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، اللّسان: (غمر).
(6) الزمخشري، الكشاف: 2/46، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/67.
(7) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/89، والبيت ذكره المَرْزُوقِيُّ فِي (شَرْحِ الْحَمَاسَةِ)، وهو من قَوْلِ جَعْفَرِ بْنِ عُلْبَةَ الْحَارِثِيِّ، ينظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/383.
(8) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 2/1641.
(9) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بسط).

5) ﴿ٱلْهُونِ﴾: (هون) أصلٌ يدلُّ على سكينةٍ أو ذُلٍّ، الهُونُ: الخِزْيُ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فصلت: 17]، أَي: ذِي الخِزْيِ، والهُونُ: الهَوَانُ، وهو نَقِيضُ العِزِّ، وأهانه: استخفَّ به، يقال: رجلٌ فيه مَهانَةٌ، أي: ذُلٌّ وضَعفٌ[1]، وقوله تعالى: ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [فصلت: 17] أي: الهوان الشَّديد[2]، والعرب إذا أرادت بالهُون معنى: الهوانِ؛ ضمَّت الهاءَ، وإذا أرادت به الرِّفق والدَّعَة وخفَّة المؤونة؛ فتحتِ الهاءَ، فقالوا: هو (قليل هَوْن المؤونة)، ومنه قول اللّه: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [سورة الفرقان: 63]، يعني: بالرِّفق والسَّكينة والوقارِ"[3].

6) ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾: (كبر) أصلٌ يدلُّ على خلاف الصِّغَر، والاسْتِكْبارُ يقال على وجهين: **أحدهما**: أن يتحرَّى الإنسان ويطلبَ أن يصير كبيرًا، وذلك متى كان على ما يجبُ، وفي المكان الَّذي يجب، وفي الوقت الَّذي يجب، فمحمودٌ. **والثَّاني**: أن يتشبَّع، فيُظهِرَ من نفسه ما ليس له، وهذا هو المذمومُ، وعلى هذا ما ورد في القرآن، كقوله تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾، وتدلُّ صيغةُ الاستفعالِ فيه على معنى الأَنَفةِ والاسْتِنْكافِ من شيءٍ ما، كأنَّ من أُسنِدتْ إليه هذه الصِّيغة أكبرُ من هذا الشّيء، كقولهِ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر: 59][4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا أعظمُ ذنبًا، ولا أقبحُ جرمًا، ممَّن أنكرَ الوحيَ، أوِ ادَّعى أنَّه يُوحى إليه

يخبرُ اللّهُ تعالى على وجه الإنكارِ بالاستفهام، أنْ "لا أحدَ أعظمُ ظُلمًا، ممَّن اخْتَلَقَ على اللّه كَذِبًا، بأن قال: ما أنزل اللّه على بشرٍ من شيء، أو قال كذبًا: إنَّ اللّه أوحى إليه، واللّه لم يوحِ إليه

(1) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، اللّسان: (هون).
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/47.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 9/412.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كبر).

شيئًا، أو قال: سأُنْزِل مثلَ ما أنزل الله من القرآن. ولو ترى - أيُّها الرَّسول ﷺ - حين تُصيب هؤلاء الظَّالمين سكراتُ الموت، والملائكة باسطو أيديهم إليهم بالتَّعذيب والضَّرب، يقولون لهم على سبيل التَّعنيف: أَخرجوا أنفسَكم، فنحن نقبضها، في هذا اليوم تُجزون عذابًا يُهينكم، ويُذِلُّكم، بسبب ما كنتم تقولون على الله من الكذبِ، بادِّعاء النُّبوَّة والوحي، وإنزال مثل ما أنزل الله، وبسبب تكبُّركم عن الإيمان بآياته - لو ترى ذلك لرأيتَ أمرًا فظيعًا"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ الاستئنافيَّةِ في قوله: ﴿وَمَنْ﴾:

بيانُ عِظَمِ الكذبِ على اللهِ العظيمِ ومَغَبَّةِ التَّطاولِ على وحيهِ الكريمِ

بعد أن ذكرَ إنزالِ الكتابِ المبارك، استأنفَ النَّظم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لبيانِ مَن يفترون الكذب في ادِّعاء الوحي، فالواوُ (استئنافيَّةٌ)، والكلامُ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لذِكْرِ بعضِ المتنبِّئينَ ضلالةً[2]، "إذ إنَّ الافتراءَ على الله، والتَّلبيسَ على النَّاس باسمه، وادِّعاءَ النُّبوَّة، واختلاقَ ما يكون بين يديها من كلماتِ اللهِ وآياته، كلُّ هذا عدوانٌ على الله، وتطاولٌ على ما تفرَّد به سبحانه من قدرةٍ وعظمةٍ، وفي هذا مَهْلِكةٌ وضياعٌ لكلِّ من يتلبَّس بمنكَر من هذه المنكرات"[3].

بلاغةُ الاستفهامِ في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

التَّعريضُ بالمفْتَرينَ لإبطالِ تكذيبِهم نزولَ الوحي، وانتحالِ الرِّسالة

خرج الاستفهامُ إلى غرضٍ مجازيٍّ، فإنَّ اللهَ تعالى لا يَسأل؛ إذ لا يخفى على واسعِ علمه شيءٌ، فالاستفهام "إنكاريٌّ"، فهو في معنى النَّفي، أي: لاأَحَدَ أَظْلَمُ من هؤلاء أصحابِ هذه الصِّلاتِ،

(1) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/139.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/170.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/239.

ومَساقُهُ هنا مساقُ التَّعريض بأنَّهم الكاذبون، إبطالًا لتكذيبهم إنزالَ الكتاب"[1]، والمراد من الإنكارِ، وبيانِ انتفاء وجود من يفوقهم ظلمًا، "التَّنديدُ بالَّذين يفعلون ذلك أشدَّ التَّنديدِ"[2].

مفادُ النَّفي المدلولِ عليه بالاستفهامِ في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾:

التَّعبيرُ عن النَّفي بالاستفهام في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أبلغُ من النَّفْي المباشرِ والصَّريح كأن يقولَ: (لا أظلمَ ممَّن افترى الكذب)؛ إذ هو نفيٌ بالاستفهام متضمِّنٌ الدَّعوةَ إلى البحث والتَّقصِّي، فيكونُ تقريرُ النَّفي ليس إخبارًا بحتًا، بل هو حقيقة توصَّل إليها بعد البحث والتَّحرِّي؛ فلذا كان النَّفي بالاستفهامِ أبلغَ من النَّفي الصَّريحِ.

النَّفيُ بالاستفهامِ أبلغُ منَ النَّفي الصَّريحِ

وآثرُ التَّعبير بالنَّفي بهذه الطَّريقة؛ لأنَّ السِّياق جاء لبيان أشدِّ الظُّلم، وهو الكذبُ على الله تعالى، فلَزِمَ التَّعبيرُ عن نفي الصِّفة عن سواه نَفْيًا بليغًا، فكان النَّفيُ بالاستفهام الأنسبَ لذلك.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(أفعل التَّفضيل) في قولهِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾:

وصفَ الَّذين يفترون الكذبَ على الله تعالى بأنَّهم الأظلمُ من كلِّ أحدٍ، ولا يقتضي أن يكون التّفضيلُ بين متساويين في الظُّلم، وليس فيه "تَعرُّضٌ لِنَفْي المساوي وإنكارِه، فإنَّ الاستعمالَ الفاشيَ في قولك: مَنْ أفضلُ من زيدٍ؟ أو لا أكرمَ منه؛ على أنَّه أفضلُ من كلِّ فاضلٍ، وأكرمُ من كلِّ كريم"[3]، فَدَلَّ على غاية الظُّلم، حيث لا ظلمَ أعلى منه، ولا ظلمَ بعده، وفي ذلك مبالغةٌ في وصفهم بالظُّلم.

المفتري على اللهِ، أظلمُ من كلِّ ظالمٍ

سرُّ إيثارِ الظُّلم ليكونَ محورَ الاستفهامِ في الآية:

آثر النَّظْمُ الكريمُ الظُّلم؛ لأنَّه تعدٍّ على حقِّ الله تعالى في الوحي،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/374، وينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 4/585، والشّهاب، عناية القاضي: 4/95.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2591.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/163.

وادِّعاءُ ما ليس بحقٍّ، فالنُّبوَّةُ محدودة بإرادة الله تعالى ومشيئته، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾، فمن ادَّعى الوحيَ والنُّبوَّةَ، أو قال: سأُنْزِلُ مثلَ وحي الله تعالى، فقد نَسَبَ الشَّيءَ إلى غيرِ صاحبه، وهذا ظلمٌ؛ إذ قد جاوز الحدَّ فصارَ ظالمًا، وعَدَلَ عن أن يقول: (ومَنْ أَجْرَمُ)، أو: (ومَنْ أَكْذَبُ)؛ لأنَّه لا يريد أن يبيِّنَ درجاتِ الكذب، فالسِّياقُ ليس في الكذبِ على وَجْهِ العموم، بل في الكذب في شأنِ الوحي، كادِّعاء الوحي، أو كذبَ على الله تعالى، وهذا معلومٌ أنَّه أكذبُ الكذب، فالسِّياق في بيان أنَّ الكذبَ على الله تعالى ظلمٌ، بل لا ظلمَ بعده.

ادِّعـاءُ الـوحـيِ دونَ وحـيٍ هو أشـدُّ الـظُّـلـمِ والغُرورِ

دلالةُ الموصولِ (مَن) في قوله: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

عبَّرَ بالموصول (مَن) في قوله تعالى: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾، وهذا الموصولُ دالٌّ على العموم، وجاء به هنا للدَّلالة على أنَّ الحكمَ المذكورَ في الآية عامٌّ، يشمل كلَّ منِ افترى أو قال تلك المقولاتِ، وليس "المرادُ فردًا معيَّنًا، فالَّذين افتروا على الله كذبًا، هم المشركون؛ لأنَّهم حلَّلوا وحرَّموا بهواهم، وزعموا أنَّ الله أمرهم بذلك، وأثبتوا لله شُفعاءَ عنده كذبًا"[1]، فلذا لم يقل: (ومن أظلم من الَّذي افترى)؛ لأنَّهُ ليس مقصورًا على قومٍ معهودينَ.

الـدَّلالـةُ على أنَّ الـحـكـمَ عـامٌّ، وليس مقصورًا عـلـى قـومٍ معهودينَ

العدولُ عن لفظِ الكذبِ إلى لفظِ الافتراءِ:

الكذب إخبارٌ بخلاف الحقيقةِ، وليس مطابقًا للواقع، أمَّا الافتراءُ فهو اختلاقُ حدثٍ ليس موجودًا، فهو أشدُّ من الكذب، فالكذب يدلُّ على التَّغيير، أي: تغييرُ الحقائقِ والإخبارُ عنها بخلافِ ما هي عليه، ولكن هي موجودةٌ، وإن كانت بصورةٍ مخالفةٍ للإخبارِ، أمَّا الافتراءُ فليس له واقعٌ ولا حقيقة، إذ هو ليس تغييرًا، بل اختلاقٌ وإيجادُ واقعٍ مزيَّف، فكان أَخَصَّ من الكذب وأشدَّ منه، وهو الأنسب

الافتراءُ أشدُّ من الـكـذبِ؛ لأنَّـهُ اخـتـلاقٌ لـواقـعٍ ليس موجودًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/374 - 375.

للتَّعبير عن ادِّعاء الوحي، إذ هو اختلاقُ واقعٍ ليس موجودًا، وليس هو تغييرٌ لواقعٍ موجودٍ.

نُكتةُ التَّصريحِ باسمِ الجلالةِ في قوله: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، صرَّح بلفظ الجلالة في سياق الحديث عن الكذبِ عليه ﷺ؛ تنبيهًا على عِظَم هذا الجُرْم، وإعلامًا بشدَّة قباحته، فإنَّه كذبٌ على الجليلِ العظيم، فَصَرَّحَ بِعَلَم الجَلالةِ إظهارًا لعظمةِ جنايتِهم.

الافـــتراءُ على اللهِ من أعظمِ الـجُـرْمِ، وأقبحِ الإثمِ

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿كَذِبًا﴾ من قوله تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

آثَرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بصيغةِ التَّنكيرِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، للدَّلالة على عِظَم الكذبِ على الله تعالى، فإنَّ أيَّ شيءٍ يَصْدُقُ عليه أنَّه كذبٌ على اللهِ تعالى؛ فإنَّهُ محكومٌ عليه بالظُّلْمِ، وعاقبتُهُ تؤولُ إلى الخَسارِ.

قـلـيـلُ الـكـذبِ على اللهِ تعالى كـالـكـثـيرِ، فلا تَساهُلَ فيهِ البتَّةَ

نكتةُ التَّصريحِ بالكذبِ والافْتِراءِ دالٌّ عليه في قولهِ: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

الافتراءُ يدلُّ على الكذب ضِمنًا؛ لأنَّ معناه اختلاقُ الكذب، "لكن صَرَّح بالكذبِ، لبيانِ شدَّةِ افترائِهم واختلاقِهم وكلامِهم الباطل الَّذي ليس له أصلٌ من الحقِّ أو الحقيقة"[1]، فالتَّعبير بلفظَيْنِ دالَّيْنِ على الكذب فيه تأكيدٌ وبيانٌ لشدَّة كذبهم.

ذكـــرُ لـفـظَـيِ الـــكـــذبِ والافـتراءِ، يؤكِّدُ بشاعَةَ زورِهِـمْ وشَناعَتَهُ

بلاغةُ عطفِ جملةِ: ﴿أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ على جملةِ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾:

قوله جلَّ شأنه: ﴿أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ معطوفٌ على قولهِ تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ للدَّلالة على استقصاءِ مَن يكذبون على اللهِ تعالى، "أي: كلُّ من ادَّعى النُّبوَّةَ كَذِبًا"[2]، فكلُّ أولئك مشتركون في صفة الظُّلم.

ادِّعـــاءُ الـوحـي والافـــتراءُ على اللهِ تعالى منَ الجرائمِ البَشِعَةِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2592.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/375.

سرُّ التَّعبير بفعل القولِ في قوله تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾:

نـقْـلُ مقولتِهم بنـصِّـها أمـانـةٌ مَرْعِيَّةٌ

في قوله تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، عبَّرَ بفعلِ القول للدَّلالة على أنَّه حكى مقولَتَهم بلفظِها ونصِّها، والنَّصُّ هنا ممَّا يُطلب نقله بلفظه؛ لأنَّه موضعُ بيان الكذب على الله تعالى.

دلالةُ بناءِ الفعلين للمفعولِ في قوله: ﴿قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾:

اخـتـصـاصُ الـوحـي بـالله تـعـالى، يُـراعى فـيـه الإيـجـازُ بحذفِ الفاعلِ

في قوله تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ بنى الفعلَ للمجهولِ تعويلًا على شهرةِ الفاعل؛ إذ الوحيُ مختصٌّ بالله تعالى، فَحَذَفَهُ إيجازًا في اللَّفظ؛ ولأنَّ المرادَ الاهتمامُ بالإيحاءِ نفسه، لا بكونه من معيَّن. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾، جاء الفعلُ مبنيًّا للمفعول، ولم يصرَّح بالفاعل، فلم يقل: (ولمْ يُوحِ اللهُ إليه)؛ إجراءً له على صيغةِ الفعلِ المذكورِ قبلَهُ في قوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، وتعويلًا على معرفة الفاعلِ وشهرتِهِ، وذلك في منتهى الدِّقَّة البيانيَّة، إذْ إنَّ السِّياق يتمدَّد حينًا بذكر بعض عناصرِ بناءِ الجملة مُظْهَرَةً غيرَ مُضْمَرَةٍ، ويتقلَّص حينًا آخر بالحذفِ أو الإضمار، ولا يُذكر فيه إلَّا ما لابدَّ من ذِكْرِهِ، ممَّا يقتضيه البناءُ الجُمْلِيُّ، وعلى ذلك يعمل الذِّهن على تقدير المحذوفاتِ، وتصوُّر الألفاظِ الممكنِ تصوُّرُها من المضمَرات أو المحذوفاتِ، ممَّا يحتملُه السِّياق، وتدلُّ عليه القرائنُ، وتسمحُ بهِ قواعد النَّحو وقوانينُ اللُّغة.

علَّةُ تقييدِ الجملةِ بالحالِ في قوله: ﴿قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾:

مـن صـدقَ في دعـواهُ نُـزولَ الـوحـي عليهِ، اسـتُـثـنـيَ مـنَ الحُكْمِ الآنفِ

عبَّر بالجملة الحاليَّة؛ للدَّلالة على حال القائل في قوله تعالى: ﴿قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾، أي: ادَّعى ذلك في حالة خلوِّه منه، أي: "غيرَ موحًى إليهِ؛ لأنَّ من قال: أوحيَ إليَّ، وهو موحًى إليه

هو صادقٌ"[1]، فهو حالٌ لازمٌ وليس مفارقًا وجبَ ذكرُه؛ لأنَّ المعنى سيكون مناقضًا لصدق الأنبياء، وهم يجبُ في حقِّهم الصِّدق، وينتفي الكذبُ، لا في بلاغهم فحسب، ولكن حتَّى في حياتهم العاديَّة حتّى لا يكونَ كذبُهم في الحياة ذريعةً للطَّعنِ في أمانتِهم وصدقِهم في البلاغِ، وهذا في غايةِ الوضوحِ والإفصاحِ.

التَّعريضُ بالمكذِّبين بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾:

سياقُ القرآنِ مقنعٌ في إبطالِ دعوى تكذيبِهم إنزالَ الكتابِ

عرَّض النَّظمُ بالَّذين كذَّبوا إنزالَ الله تعالى الوحيَ بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ إشارةً إلى "إبطالِ ما اختَلَقَهُ المشركون من الشَّرائع الضَّالَّةِ، في أحوالهم التي شَرَعَها لهم عَمرو بن لُحَيٍّ من عبادة الأصنامِ، وزعمهم أنَّهم شفعاءُ لهم عند الله، وما يستتبعُ ذلك من البَحيرَةِ والسَّائبةِ، وما لم يُذكرِ اسمُ الله عليه من الذَّبائح وغير ذلك. فهم ينفون الرِّسالةَ تارةً، في حين أنَّهم يزعمون أنَّ الله أمرهم بأشياء، فكيف بَلَغَهم ما أمرَهم الله به في زعمِهم؟ وهم قد قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، فَلَزِمَهم أنَّهم قد كذبُوا على الله فيما زعموا أنَّ اللهَ أمرهم بهِ؛ لأنَّهم عطَّلوا طريق وصولِ مرادِ الله إلى خلقهِ، وهو طريق الرِّسالة، فجاؤوا بأعجبِ مقالةٍ"[2].

دلالةُ عطفِ جملةِ: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ﴾ على ما قبلَها:

ادِّعاءُ الوحيِ والزَّعمُ بالقدرةِ على إنزالِ الوحيِ، كلاهما أشدُّ الظُّلم

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ معطوفٌ على الموصولِ المجرورِ ﴿مِمَّنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فـ ﴿وَمَن قَالَ﴾: "مجرورُ المحلِّ؛ لأنَّه نَسَقٌ على (مَنْ) المجرور بـ (مِنْ)، أي: وممَّن قال"[3]، فالعطفُ لتشريكِ هذا الفعلِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/585.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/373.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 5/40.

بوصفه بأنَّه نهايةُ الظُّلم، فلا ظلمَ بعده، "أي: ولا أحدَ أظلمُ أيضًا مِمَّن قال: بأنِّي قادرٌ على أن أُنْزِلَ قرآنًا، مثل الَّذي أنزله الله"[1].

دلالةُ الموصولِ في قوله: ﴿وَمَن﴾:

الـدَّلالـةُ على عـمـومِ الحكمِ وشـمـولِهِ لكلِّ زمنٍ

عبَّر بالموصول ﴿وَمَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ﴾، الدَّالِّ على "العموم، ليشملَ كلَّ من صدرَ منه هذا القولُ، ومَن يتابعهم عليه في المستقبلِ"[2]؛ فلذا لم يقلْ: (والَّذي قال)؛ لأنَّ القول المذموم ليس مختصًّا بقومٍ بأعيانهم.

عِلَّةُ تَكرارِ الموصولِ (مَن) في الآيةِ الكريمةِ:

دلالةُ استحقاقِ الظَّلمِ بارتكابِ واحـــدةٍ مـن المـذكـــوراتِ في السِّياق

كرَّر الموصولَ ﴿وَمَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، دلالةً على اختلافهم؛ لأنَّ "إعادةَ (مَن) تدلُّ على تغايُرِ مدلولِه لمدلولِ (مَن) المتقدِّمة، فالَّذي قال: ﴿سَأُنزِلُ﴾ غيرُ مَنِ افترى أو قال: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾"[3]، وذلك يدلُّ على أنَّ الحكمَ بكونِهِ أظلمَ النَّاس، لا يقتضي أن يأتي بالصِّفات المذكورة كلِّها، بل يكفي أن يأتيَ بواحدةٍ منها، ليكونَ جديرًا بذلك الجُرمِ.

سرُّ تَكرارِ فعلِ القولِ في الجملتينِ الكريمتَينِ:

الـدَّلالـةُ على اسـتـقـلالِ كـلِّ مقولةٍ بالذَّمِّ

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، تكرَّر لفظُ القولِ للدَّلالةِ على استقلالِ المقولتين بالذَّمِّ، فهما ليستا مقولةً واحدةً، فاستحقَّ كلُّ قول منهما أن يجريَ عليه الذَّمُّ على وجهِ الانفرادِ.

فائدةُ السِّين في قوله: ﴿سَأُنزِلُ﴾، وإيثارُ التَّعبيرِ بفعلِ الإنزالِ:

إجـــراءُ الـوعـدِ بـإنـزالِ الكتابِ مجـرى الـواعـدِ النَّاجزِ المؤكَّد

دلَّتِ السَّين في قوله جلَّ شأنه: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، على

(1) سيّد طنطاوي، التّفسير الوسيط: 5/130.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/376.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/585.

تأكيدِ الوعد، "أي: بوعدٍ لا خُلْفَ فيه"[1]، والتَّعبير بفعل الإنزال طلبًا منهم لمحاكاة إنزالِ الوحي منَ الله تعالى وتشبُّهًا بذلك.

معنى ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وفائدتُها:

من ادَّعى الإتيانَ بمثلِ القرآنِ؛ كذَّبَتْهُ شواهدُ الامتحانِ

"وقولُه: ﴿مِثْلَ﴾ يجوز فيه وجهان، **أحدهما**: أنَّه منصوبٌ على المفعولِ به، أي: سأنزلُ قرآنًا مثلَ ما أنزل الله، و﴿مَآ﴾ على هذا موصولةٌ اسميَّة، أو نكرة موصوفة، أي: مثل الَّذي أنزلَهُ أو مثل شيءٍ أنزلَهُ. **والثَّاني**: أن يكونَ نعتًا لمصدرٍ محذوفٍ، تقديره: سأنزلُ إنزالًا مثلَ ما أنزل الله، و﴿مَآ﴾ على هذا مصدريَّة، أي: مثل إنزالِ الله"[2].

والرَّاجحُ أنَّها موصولةٌ؛ لأنَّ القولَ بمصدريَّتها، يدلُّ على أنَّ المماثلة المزعومةَ تكونُ في الإنزال، وإنزالُ الله تعالى الوحي، ليس في وسع أحدٍ، حتَّى يدَّعي مماثلتَه؛ إذ رأوا علاماتِه على النَّبيِّ ﷺ، من تصبُّبِ العرقِ والثِّقل وغيره. وأيضًا القولُ بكونها مصدريَّةً يُحْوِجُ إلى تَقديرِ محذوفٍ، وعدمُ التَّقديرِ أولى، وعليه فهي موصولةٌ، والمراد أنَّ قائل ذلك وَعَدَ مدَّعيًا قدرتَهُ على المجيء بكتابٍ مثلِ القرآن.

السِّرُّ في ترتيبِ المذكوراتِ في الآية الكريمة:

ترتيبُ المذكوراتِ من الأعمِّ إلى الأخصِّ من بلاغةِ السِّياق

ذكر اللهُ تعالى ثلاثة أعمالٍ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، فجاءتْ بترتيبٍ متدرِّجٍ، وقد بيَّن (في البحر المحيط) ذلك بما مفادُهُ: أنَّه قد بدأ أوَّلًا بالعامِّ، وهو افتراءُ الكذب على الله، وهو أعمُّ من أن يكونَ ذلك الافتراءُ بادِّعاء وحيٍ أو غيره، ثمَّ ثانيًا بالخاصِّ، وهو افتراءٌ منسوب إلى وحيٍ من الله تعالى، ثمَّ ثالثًا بأخصَّ ممَّا قبله؛ لأنَّ الوحيَ قد يكون بإنزال قرآنٍ وبغيره[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/190.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 5/41.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/585.

وجهُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

دعـوى الإنـزالِ، كانت لمحاججةِ المؤمنين، وليس إيـمـانًـا بـنـزول الوحي

تصريحُ هذا الكاذبِ بأنَّه سَيُنْزِلُ: ﴿مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، يقتضي أنَّه يؤمن بأنَّ الله تعالى أنزل شيئًا، وهذا مناقضٌ لما زعموه كما جاء في صَدْرِ الآيةِ؛ إذ إنَّهم نَفَوا أن يكون اللهُ تعالى قد أنزل شيئًا، والجوابُ عنه أنَّ قوله "﴿مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ليس معتقدَه أنَّ الله أنزل شيئًا، وإنَّما المعنى مثل ما أنزل الله على زعمكم"[1]، فقولهم ذلك ليس إيمانًا، بل قالوه على سبيل الاحتجاج.

بلاغةُ العطفِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾:

وصـفُ المفترينَ على اللهِ الكذبَ، والتَّـفـصـيـلُ في جـزائِـهـم بعد الإجمالِ

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، معطوفٌ على الجملةِ في صدر الآية: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ الَّتي تفيدُ "التَّخويفَ العظيم، على سبيل الإجمال، وقوله بعد ذلك: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾، كالتَّفصيلِ لذلك المجمَل"[2]، فالجملةُ الثَّانية تضمَّنتْ تفصيلَ الجزاء الذي استحقُّوه؛ لأنَّها "وعيدٌ بعقابٍ لأولئك الظَّالمين المفترين على الله والقائلينَ: (أوحي إلينا)، والقائلين: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ فالظَّالمون في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾، يشمل أولئك، ويشملُ جميعَ الظَّالمين المشركين"[3].

دلالةُ ﴿وَلَوْ﴾ الشَّرطيَّة في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾:

مـا يـلاقـيـه الـظَّـالـمـون أثـنـاءَ الوفاةِ من أعظمِ الامتحانات

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾، عبَّر بـ ﴿وَلَوْ﴾ الشَّرطيَّة "والمقصود من هذا الشَّرط تهويلُ هذا الحال"[4]، وهو ما يلاقونه أثناءَ الوفاةِ، فلو عبَّر بأسلوب الإخبار عن شدَّة الهولِ، لما كان له هذا الوقعُ من التَّهويل، لا سيَّما وأنَّ جواب الشَّرط محذوفٌ كما سيأتي بيانه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/585.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/67، وينظر: البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/190.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/376.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/377.

سرُّ الخطابِ بالمفردِ في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾:

الخطابُ بالمفردِ للدَّلالةِ على كلِّ من يرى زيادةً في تهويلِ ما يلاقونه

"الخطابُ في لفظ ﴿تَرَىٰٓ﴾ للرَّسول ﷺ، أو كلِّ من تتأتَّى منه الرُّؤية، فلا يختصُّ بهِ مخاطَبٌ"[1]، والعموم هو الأرجح؛ لأنَّ رؤيتَهم في تلك الحالِ ليس ممَّا يختصُّ به ﷺ.

دلالةُ الرُّؤيةِ في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾:

يدلُّ الفعلُ على الرُّؤيةِ العِلميَّةِ، وهو يتعلَّقُ بحالةِ الوفاةِ والنَّزعِ

فهل الرُّؤية في قوله جلَّ ذكره: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هي من الرُّؤيةِ العلميَّةِ "بمعنى: رأيتَ؛ لعمله في الظَّرف الماضي"؟[2]، فلمَّا حكتِ الحالُ الماضيةُ بتسليط الرُّؤية على ﴿إِذِ﴾ الدَّالِّ على الماضي، دلَّ على أنَّها رؤيةٌ علميَّةٌ تتعلَّق بنزعِ أرواحهم حالَ الوفاةِ.

دلالةُ اللَّامِ في لفظِ: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ من قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

الاستغراقُ باللّام تعميمٌ للجزاءِ المرصودِ لكلِّ ظالمٍ كنودٍ

قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، يحتمل أن تكون اللَّام للعهدِ وللجنس، فإذا أريد "الَّذين ذكرَهم منِ اليهودِ والمتَنَبِّئة، فتكون اللَّام للعهد، ويجوز أن تكونَ للجنسِ، فيدخل فيه هؤلاءِ لاشتمالِه"[3]، أي: إذا كانتِ للجنس، فهي تشملُ هؤلاء المذكورين وكُلَّ ظالمٍ في كلِّ زمانٍ، "واللَّام للجنس الدَّاخل فيه هؤلاءِ دخولًا أوليًّا"[4].

بلاغةُ وضعِ الظَّاهرِ موضعَ المضمَرِ في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

الجزاءُ عامٌّ لكلِّ ظالمٍ، وليسَ خاصًّا بالمذكورينَ

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وَضَعَ الظّاهِرَ مَوْضِعَ المُضْمَرِ، فلم يقل: (ولو ترى إذ هم في غمرات الموت)؛ تصريحًا بالصِّفةِ الَّتي نالوا بها ذلك الجزاء، "أي: لأجلِ مُطْلَقِ الظُّلم"[5]، فقد نالوه بسببِ ظلمِهم، كما أنَّ فيه تعميمًا لكلِّ ظالمٍ؛ إذ لو عبَّر بالضَّميرِ؛ لكانَ مضمونُ الآية خاصًّا بهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/376.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/586.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/46، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/522، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/585.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/190.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/190.

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ المفعولِ به في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

حذفَ المفعولَ به الَّذي يقتضيهِ الفعلُ ﴿تَرَىٰٓ﴾؛ اعتمادًا على "دِلالةِ الظَّرفِ عليه، أي: ولو ترى الظَّالمين؛ إذ هم ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾"[1]، طلبًا للإيجاز، وفي القرآن نظائرُ لذلك، "والرُّؤية بصريَّة، ومفعولها محذوف، أي: ولو ترى الظَّالمين؛ إذ هم في غمراتِ الموتِ، وإذ: ظرفٌ لما مضى من الزَّمنِ متعلِّقٌ بـ ﴿تَرَىٰٓ﴾، والظَّالمون مبتدأٌ، وفي غمراتِ الموت: جارٌّ ومجرور، متعلِّقان بمحذوف خبر ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، والجملةُ الاسميَّةُ في محلِّ جرٍّ بالإضافة"[2]، وتطلُّبُ الإيجازِ بالحذفِ من مقاصدِ البناءِ الأسلوبيِّ في القرآن الكريم وفي أساليبِ العربِ، وهو يُضفي على السِّياق جماليَّةً، ويقدح الذِّهن لفهمِ الدَّلالة وتذوُّق البيان.

دلالـةُ الـظَّـرفِ على المحـذوفِ، وتقديرهُ لجلاءِ المعْنى

فائدةُ تقييدِ الرُّؤيةِ بالوفاةِ:

في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾: قيَّدَ تعالى رؤيتَهم المذكورةَ في وقتِ وفاتِهم؛ "وتقييدُ الرُّؤية بهذا الوقت ليفيدَ أنَّه ليس المراد مجرَّد رؤيتهم، بل رؤيتُهم على حالٍ فظيعةٍ عند كلِّ ناظرٍ"[3]، فإنَّ المرادَ ليس مطلقَ الرُّؤية.

الـدَّلالـةُ على أنَّ المـرادَ ليس مطلَقَ رؤيتِهم، بـل في حـال الوفاةِ فقط

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ (في) الظَّرفيَّةِ في قوله: ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾:

عبَّر بـ ﴿فِي﴾ الدَّالَّة على الظَّرفيَّة على شدَّة تمكُّن سكرات الموتِ منهم؛ فـ ﴿فِي﴾ هنا "للظَّرفيَّة المجازيَّة، للدَّلالة على شدَّة ملابسةِ الغَمَراتِ لهم، حتَّى كأنَّها ظرفٌ يحويهم، ويُحيطُ بهم"[4]، وفي ذلكَ دلالةٌ على تصويرِ حالةِ الوفاةِ، فكأنَّ الموتَ وغمراتِه كيانٌ محيطٌ بهم، ملابسٌ لهم أشدَّ الملابسةِ والتَّمكُّن، وكلُّ ذلك تهويلٌ لحالةِ وفاتهم، وخروجهم من الدُّنيا.

تـهـويـلًا لـشـأنِ وفـاتِـهـم عـبَّرَ بـ (في) الـظَّـرفـيَّـةِ المجازيَّةِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/163، وينظر: البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/173.
(2) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/171.
(3) الشهاب، عناية القاضي: 4/96.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 7/377.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾:

استعارَ الغَمْرةَ الدَّالَّةَ عَلى كُرباتِ الموتِ وشدَّتِه على النَّفسِ

وفي قوله جلَّ شأنه: ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾، استعارَ الغمرةَ للشِّدَّة؛ "تشبيهًا بالشِّدَّةِ الحاصلةِ للغريق حين يَغمرُهُ الوادي أو السَّيل"[1]، فالغمراتُ هي شدائدُ الموتِ الَّتي تغشاهُ، كما يغشى الماءُ الغريقَ؛ لأنَّ "أصلَ الغمرةِ: ما يَغمر من الماء، فاستُعيرتْ للشِّدَّةِ الغالبة"[2]، حيثُ شبَّهَ ما يلاقونه من شدائدِ سكراتِ الموتِ، بما يلاقيهِ الغريقُ في لحظات غرقه من أهوالٍ وشدائدَ، فغمراتُ الموتِ "شدائدُهُ الَّتي قد غمرَتْهم، كما يغمرُ البحر الخِضَمُّ مَن يغرق فيه، فهو يرفعُه ويخفضُه، ويبتلعُه ويلفظُه"[3].

علَّةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ في قوله: ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾:

سكراتُ الموتِ جمعٌ، فجمعَ الغمراتِ لتتناسبَ الصِّيغتانِ

عبَّرَ عنِ الغَمَراتِ بصيغةِ الجمع لتعدُّدِها، وللمبالغة فيها، وفي بيان علَّة ذلك جاءَ في التَّحرير والتَّنوير: "وجَمْعُ الغمراتِ يجوزُ أن يكونَ لتعدُّدِ الغمرات بعدد الظَّالمين، فتكون صيغة الجمعِ مستعملةً في حقيقتها، ويجوزُ أن يكون لقصد المبالغة في تهويل ما يُصيبهم، بأنَّهُ أصنافٌ من الشَّدائد، وهي لتعدُّد أشكالِها وأحوالها لا يعبَّر عنها باسم مفردٍ، فيجوز أن يكونَ هذا وعيدًا، بعذابٍ يلقونه في الدُّنيا في وقت النَّزع، ولمّا كان للموت سكراتٌ، جُعلت غمرةُ الموت غَمَراتٍ"[4].

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾، دونَ (سكرات الموت):

الظَّالمون جزاؤهم أن تكونَ سكراتُهم عندَ موتهم أشدَّ

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾، آثرَ التَّعبيرَ عن سكرات الموت بالغمراتِ؛ لأنَّ الغمراتِ "أشدُّ من سكرات الموت"[5]؛ وإنَّما آثر التَّعبيرَ بما يعبِّر عن شدَّة السَّكرات في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/377.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/46.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/190، وينظر: الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/488.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/377.
(5) الآلوسّي، روح المعاني: 4/212.

هذا الموضعِ؛ لأنَّه في سياق الظَّالمين، فغلَّظ عليهم الغمراتِ جزاءً وفاقًا لهم.

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

الشَّرطُ في مقام التَّهويلِ، يناسبهُ حَذْفُ الجوابِ إيغالًا في التَّهويلِ

(لو) الشَّرطيَّة تقتضي جوابًا، وقد جاءت في الآية محذوفةَ الجوابِ، والتَّقديرُ: "لرأيتَ أمرًا عظيمًا، ولرأيتَ عجبًا، وحذفهُ أبلغُ من ذكرِهِ"[1]، وإنَّما كان حَذْفُه أبلَغَ من ذكرِهِ "لأنَّ السَّامع إذا لم يُنَصَّ لهُ الجوابُ يُتْرَكُ مع غاية تخيُّله"[2]، فَعَدَمُ الإجابةِ عن شرط (لو) يحثُّ السَّامعَ على التَّوقُّعِ ووضْعِ جوابٍ من نفسه لهذا الشَّرطِ، والمدى متَّسعٌ لكلِّ ما يكون جزاءً، وهذا غايةُ التَّهويلِ.

أثرُ جملةِ الحالِ في المعنى في قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾:

تصويرُ الملائكةِ حالَ مدِّ أيديهم لقبض أرواحِ الظَّالمين

قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾، "جملةٌ في محلِّ نصبٍ على الحال"[3]، أي: والملائكةُ مادُّون أيديَهم إلى المشركين، لِيَقْبِضوا عليهم، ويَدفعوهُم إلى الحسابِ، إذا كان المرادُ بذلك يومَ القيامة، أو ليقبضوا أرواحَهم إذا كان المرادُ ساعةَ الوفاة، فيكونُ بسطُ الأيدي حقيقةً، بأن تتشكَّلَ الملائكةُ لهم في أشكالٍ في صورةِ الآدميِّين[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ عن شدَّةِ الموتِ ببسطِ الأيدي في الآيةِ:

تصويرُ شدَّةِ الموتِ وانتزاعِ الأرواحِ ببسطِ اليدين

عبَّر عن شدَّةِ قبضِ أرواحِهم وعُنْفِهم حالَ النَّزعِ ببسْطِ اليدين كنايةً عن العنف، "لا أنَّ ثمَّة تُبسطُ الأيدي"[5]، فبسْطُ اليدِ في هذا السِّياق كنايةٌ عن مدِّها بالمكروهِ، وهو أوائلُ عذابٍ وأَماراتُهُ، وليس هو البسطُ لمجرَّدِ قبضِ النَّفسِ؛ فإنَّهُ يشترك فيه المؤمنُ والكافرُ[6].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/586، وينظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/46، والشّهاب، عناية القاضي: 4/96، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2594.
(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/323.
(3) السّمين، الدّر المصون: 5/42.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/378 - 379.
(5) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/165.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/323.

أو هو مجازٌ للتَّمثيل عن شدَّة السَّكرات، فالملائكة يقبضون "أرواحَهم كالمتقاضي الملظِّ المُلِحِّ يبسُط يدَه إلى مَن عليه الحقُّ، ويعنِّفُ عليه في المطالبة من غير إمهالٍ وتنفيسٍ"[1].

دلالةُ الأمرِ على أغراضٍ مجازيَّةٍ في قوله: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾:

شـدَّةُ العـذابِ بالتَّشديدِ في إزهاقِ الرُّوحِ من غيرِ تنفيسٍ ولا إمهالٍ

دلَّ الأمرُ بالإخراجِ على أغراضٍ مجازيَّةٍ، فهو ليس أَمْرًا للوجوب الحقيقيِّ؛ إذ ليس في مقدورهم أن يفعلوا ذلك، فعُلِم أنَّ الأمرَ بذلك "عبارةٌ عن العنف في السِّياق، والإلحاحِ والتَّشديدِ في الإرهاق من غير تنفيسٍ وإمهالٍ، وأنَّهم يفعلون بهم فِعْلَ الغريم المُسَلَّط يبسط يدَهُ إلى مَن عليه الحقُّ، ويُعنِّفُ عليه في المطالبة، ولا يُمهِلُهُ، ويقول له: أَخْرِجْ إليَّ ما لي عليك السَّاعة"[2].

وقد جمعَ الفخرُ الرَّازيُّ وجوهَ دلالةِ الأمر بإخراج أنفسهم، فقالَ ما موجزه: في الآية سؤالٌ: وهو أنَّه لا قدرةَ لهم على إخراجِ أرواحِهم من أجسادهم، فما الفائدةُ في هذا الكلام؟ فنقول: في تفسيرِ هذه الكلمة وجوهٌ: إنَّها عبارةٌ عن العنفِ والتَّشديد في إزهاق الرُّوح، من غير تنفيسٍ وإمهالٍ، وأنَّهم يفعلون بهم فعلَ الغريم الملازم الملحِّ، يبسط يدُه إلى مَن عليهِ الحقُّ، ويُعَنِّفُ عليه في المطالبة، ولا يُمهِلُهُ، ويقول له: أَخْرِجْ إليَّ ما لي عليك السَّاعة، ولا أبرحُ من مكاني حتَّى أَنْزِعَهُ من أَحْداقِك. أو هي كناية عن شدَّة حالهم، وأنَّهم بلغوا في البلاء والشِّدَّة، إلى حيثُ تولَّى بنفسِه إزهاقَ روحه. أو وَعيدٌ وتَقْريعٌ، كقول القائلِ: امضِ الآنَ لترى ما يحلُّ بكَ[3].

دلالةُ الإخراجِ بين الحقيقةِ والمجازِ في قولهِ: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾:

يـصـلـحُ الأمْـرُ بإخراجِ أنفُسِهم على الحقيقةِ، أو المجازِ بمعنى الإنقاذِ

في قوله تعالى: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾، يجوزُ في الإخراجِ أن يُرادَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/163، والشّهاب، عناية القاضي: 4/96.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/46.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/68، وينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/323، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/586، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 7/191 13/68، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2593.

به المجازُ، أي: أَنْقِذوا أنفسَكم، فهو "مجازٌ في الإنقاذِ والإنجاء؛ لأنَّ هذا الحالَ قبلَ دخولِهم النَّارَ، ويجوزُ إبقاءُ الإخراجِ على حقيقتِهِ، إن كان هذا الحالُ واقعًا في حين دخولِهم النَّارَ"[1].

بلاغةُ الإيجازِ بحذفِ القولِ في قوله: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾:

حـذفُ القـولِ تَعجيلٌ لسوقِ المقولِ وزيادةٌ في التَّغليظِ

قولُهُ تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ فيه إيجازٌ بالحذفِ؛ إذِ الجملةُ "مقولٌ لقولٍ محذوف، وحذف القول في مثله شائعٌ"[2]، والتَّقدير: نقول لهم: أَخْرِجوا أنفسَكم، إذا كان القائلُ هو اللهَ تعالى، وإذا كان القائلُ هم الملائكةَ، فالتَّقديرُ: يقولون أخرجوا أنفسَكم، "بالقول أو بلسانِ الحال"[3].

بلاغةُ الاستئنافِ في قولِهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾:

إخـراجُ أنفسِهم جمْعٌ بينَ الإيلامِ والإهانَةِ

قوله جلَّ شأنُه: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، استئنافٌ لذِكْرِ مزيدٍ من الوعيد، فآثرَ الفصلَ على العطف اهتمامًا بِسَوْقِ العذابِ المهينِ على وجه الاستقلالِ[4]، والمرادُ منهُ التَّأكيدُ على سوءِ مُنْقَلَبِهم؛ إذ جمعَ "بين الإيلامِ وبينَ الإهانةِ، فإنَّ الثَّوابَ، شرطُهُ أن يكونَ منفعةً مقرونةً بالتَّعظيمِ، فكذلك العقابُ شرطُه أن يكون مضرَّةً مقرونةً بالإهانةِ"[5].

براعةُ التَّعبيرِ باليومِ دونَ السَّاعةِ في قولِهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾:

التَّـعـبـيرُ عـن زمـانِ جـزاءِ العذابِ إشعارٌ بطولِ العذابِ وشناعتِهِ

يدلُّ الأمرُ - وإن كان مجازيًّا - على الإخراجِ في الحال، فكان يناسبُهُ أن يقولَ: (الآن تجزون عذاب الهون)؛ وإنَّما عدلَ إلى ذكرِ اليوم دون السَّاعة "كأنَّهم عبَّروا به لتصوير طولِ العذاب"[6]، والمعنى: "﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾، أي: وقتَ الإماتةِ، وما يعذَّبون به من شدَّةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/379.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/379.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2593.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/379.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 13/68 - 69.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/191.

الفزعِ، وقيل: الوقتُ الممتدُّ المتطاول الَّذي يلحقهم فيه العذابُ، في البرزخِ والقيامةِ"[1].

دلالةُ التَّعريفِ (ال) في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ﴾:

فائدةُ التَّعريفِ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ﴾ الدِّلالةُ على العهدِ، "وهو يومُ القيامةِ الَّذي فيه هذا القول، وإطلاقُ اليوم عليه مشهورٌ، فإنّ حُمل الغمراتُ على النَّزع عند الموت؛ فاليوم مستعمل في الوقت، أي: وقتَ قبضِ أرواحهم"[2]، فالمرادُ من اليوم وقتٌ معروفٌ معهودٌ.

دلالةُ اليومِ على وقتِ القَبضِ، أو عَلى يومِ القيامَةِ

دلالةُ الظَّرفِ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ﴾:

نُصِبَ اليومُ على أنَّه ظرفٌ، لكنَّ المرادَ به "مطلقُ الزَّمان لا المتعارف، وهو إمَّا حين الإماتةِ أو ما يشمله وما بعدَهُ"[3]، فهو يَحْتَمِلُ أن يكونَ ظرفًا للعذابِ يوم القيامة، أو حال القبضِ في الدُّنيا، فقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ﴾، "يجوزُ أن يريدوا وقتَ الإماتةِ، وما يعذَّبون بهِ من شدَّة النَّزعِ، وأن يريدوا الوقت الممتدَّ المتطاوِلَ الَّذي يلحقُهم فيه العذابُ في البرزخِ والقيامة"[4].

العـذابُ واقـعٌ حـالَ الـوفـاةِ، أو يـومَ القيامةِ بدلالةِ الظَّرفِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بالجزاءِ في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾:

في قولهِ جلَّ شأنُه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ يدلُّ الجزاءُ على قيامِ الشَّيء مقامَ غيره، ومكافأته إيَّاه[5]، والتَّعبيرُ بالجزاءِ، لما فيهِ من دلالةٍ على المكافأةِ؛ إذ الجزاءُ ما فيهِ الكفايةُ من المقابلة، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فَشَرٌّ[6]، والمعنى: يعطون جزاءَ عملهم، وهو عِوضُ العمل، وما يقابلُ به من أجرٍ أو عقوبةٍ، قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦﴾ [النَّبأ: 26][7].

عذابُ الهونِ هو الجـزاءُ المكافئُ لـعـمـلِـهـم في الدُّنيا

(1) إبراهيم الأبياري، الموسوعة القرآنيّة: 9/448.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/379.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/97.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/46 - 47، وينظر: النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/522.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).
(6) الرّاغب، المفردات: (جزا).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/379.

سرُّ بناءِ ﴿تُجْزَوْنَ﴾ للمفعولِ في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾:

حـذفُ الفاعلِ فيـهِ إيـجـازٌ وتعجيلٌ بذكْرِ سوءِ المصيرِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ بَنى فعلَ الجزاءِ للمفعولِ، ولم يَقُلْ: (يجزيكم الله)؛ اهتمامًا بالجزاءِ ذاتِهِ، لا بالنَّظرِ لكونِهِ من معيَّنٍ، وفي إيجازِ العبارةِ بحذفِ الفاعلِ تعجيلٌ بإبلاغهم بسوءِ مآلهم؛ فلا يفصل بينَ لفظِ الجزاءِ ولفظِ عذابِ الهونِ فاصلٌ.

نكتةُ إضافةِ العذابِ إلى الهوانِ في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾:

الإضـافـةُ تـخـصـيـصٌ لـعـذابـهـم بالهوانِ، وتأكيدٌ أنَّه ملازمٌ له

أضافَ العذابَ إلى الهوانِ الشَّديدِ؛ تأكيدًا للهوان "والهونُ: الهوانُ الشَّديد، وإضافةُ العذابِ إليه كقولك: (رجلُ سوءٍ)، يريد العراقةَ في الهوانِ والتَّمكُّنَ فيه"[1]، وبهذه الإضافةِ تحقَّق معنيان: "أي: العذابُ الجامعُ بينَ الإيلامِ العظيمِ، والهوانِ الشَّديدِ، والخزي المديدِ"[2]، كما دلَّت الإضافةُ على "أنَّ الهوانَ ملازمٌ للعذابِ، فقدِ استَكبَروا على الحقِّ، وقالوا غيرَ الحقِّ، فكانت العقوبةُ من جنس الجريمة"[3].

إيثارُ إضافةِ العذابِ إلى الهوانِ عَلى الوصفِ به:

المعنى المتحصِّلُ بـالإضـافـةِ ألـصـقُ مـنَ المعنى المتحصِّلُ بالصِّفَةِ

آثر التَّعبيرُ إضافةَ العذابِ إلى الهونِ، دونَ أن يصفهُ بهِ؛ "لأنَّ نسبة الإضافة ألصقُ من نسبة الصِّفة بالموصوف"[4]، فقولنا: فلان رجلُ سُوءٍ، أدلُّ على اتِّصافه بالسُّوء من قولنا: فلانٌ رجلٌ سيِّئٌ؛ لأنَّ الإضافةَ تدلُّ على أنَّ الاسم صار مع المضافِ شيئًا واحدًا، فعذابُ الهونِ، ليس عذابًا متَّصفًا بأنَّه مهينٌ، بل هو الهونُ ذاتُه.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/47، وينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 4/586، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/163، والشّهاب، عناية القاضي: 4/97.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/191.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2594.
(4) الطّيبي، فتوح الغيب: 6/167، وينظر: الشّهاب، عناية القاضي: 4/97.

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡهُونِ﴾ دون الهوانِ في قوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾:

الهُونُ يدلُّ على شدَّة الهوانِ، فهو أخصُّ منه

عبَّر النظم الكريم والتّنزيل الحكيم بلفظ ﴿ٱلۡهُونِ﴾ دون الهوانِ؛ لأنَّ الهُون هُو شدَّةُ الهوانِ[1]، فهو أخصُّ من الهوان، وذلك للدَّلالة على العذابِ الشَّديد[2]؛ والتَّعبيرُ بذلك أنسبُ في مقام التَّغليظ عليهم.

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾:

بيانُ أنَّ العذابَ مسبَّبٌ عنِ المذكوراتِ بعدَ الباء

بعد أن ذكرَ تعالى أنَّ جزاءَهم، هو عذابُ الهونِ، أعقبَهُ بذكر السَّبب في ذلك، بالباء السَّببيَّةِ، فقال جلَّ شأنه: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾. "أي: السَّببُ في العقابِ أمران جمع الله فيهما الظُّلمَ كلَّه"[3].

دلالةُ (ما) في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾:

تهويلُ قولِهم وبَشاعَتُهُ، يدلُّ عليهِ السِّياقُ بجلاءٍ

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ﴾ مصدريَّةٌ[4] للدَّلالةِ على تهويلِ قولِهم وبشاعَتِهِ؛ وذلك لما في (ما) من الإبهام، ويتضمَّنُ معنى التَّهويل والتَّفخيم، كما يشيرُ إلى تمكُّن القولِ منهم، فالقولُ مُتَعَلِّقٌ بكيانهم، والمعنى: أنَّهم بسببِ كيانهم على صفةِ القولِ الباطلِ استحقُّوا عذابَ الهُون، ولو كانت (ما) موصولةً؛ لكان المعنى: أنَّ ذاتَ القولِ هو سببُ ذلك الجزاء، وهذا لا يتضمَّنُ المبالغةَ، ولا شدَّةَ تمكُّن القول منهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (كان) والفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ﴾:

بيانُ تعمُّدِهم قولَ الباطلِ وتجدُّدِ إصرارِهم عَليه

عبَّر بـ (كان) في قوله جلَّ شأنُه: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ﴾؛ للدَّلالة على تعمُّدهم قولَ الباطلِ، وإصرارِهم عليه سابقًا، وتجدُّدِهِ واستمرارِهم عليه، "أي: تجدِّدون القول دائمًا"[5]؛ لأنَّ التَّعبير بـ ﴿كُنتُمۡ﴾، يدلُّ

(1) الزّمخشريّ، الكّشاف: 2/47.
(2) معاني القرآن وإعرابه للزّجاج: 2/272.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2594.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/586.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/191.

"على الاستمرار، والمضارع يدلُّ على تجدُّد القول آنًا بعد آنٍ"[1]، وفي ذلك بيانٌ لإصرارهم على ذلك القول وعَراقَتِهم في الكفر.

نُكتةُ تضمينِ ﴿تَقُولُونَ﴾ معنى (تكْذبون) في الآيةِ الكريمةِ:

ضمَّنَ ﴿تَقُولُونَ﴾ معنى (تكذبون)، فعلَّق به قولَه: على اللَّه، فَعُلِمَ أنَّ هذا القول كذبٌ على اللَّهِ، كقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقّة: 44 - 46]، وبذلكَ يصحُّ تنزيلُ فعل (تقولون) منزلةَ اللَّازمِ، فلا يقدَّر له مفعولٌ؛ لأنَّ المراد به أنَّهم يكذبون[2].

الـكـذبُ على البشرِ مذمومٌ، والـكـذبُ على الـلـهِ جُـزمُـه معلومٌ

سرُّ تعديةِ القولِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

جاء فعلُ القولِ متعدِّيًا "بـ ﴿عَلَى﴾ لتضمُّنِه الافتراءَ"[3]، ولم يقل: (بِمَا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ)، وليشملَ كلَّ قولٍ باطلٍ قالوه، (افتراءُ الكذبِ، وادِّعاء الوحي)، كما أنَّ فيه نصًّا على إعلان افترائِهم، ونشرِه بالقول.

عـبَّرَ بالقولِ عنِ الافـتراءِ ليشملَ كـلَّ أقـاويـلِـهـم الباطلةِ على اللهِ

السِّرُّ في إظهارِ لفظِ الجلالةِ دونَ الإضمارِ في قوله: ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ﴾:

إذا كان القولُ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ صَادِرًا مِنْ جَانِبِ اللَّهِ تَعَالَى، فَذِكْرُ اسْمِ الْجَلَالَةِ غرضه "الإظهارُ في مقام الإضمارِ، لقصد التَّهويل، والأصل: بما كنتُم تقولون عليَّ"[4]، فأظهر لفظَ الجلالةِ الدَّالَّ على العظمةِ والجلال، المتَّصفَ بالعظمة كلِّها[5] تهويلًا لقباحةِ ما قالوا.

تهويلُ قباحةِ ما قالوه إشارةٌ إلى الافتراءِ والكذبِ في صدرِ الآيةِ

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ دونَ (الباطل) في قولِه: ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾:

قوله جلَّ شأنُه: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، تعبيرٌ يشملُ كلَّ نوعٍ من الكفر[6]،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2594.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/380.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 4/97.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/380.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/191.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/586.

التَّصريحُ بلفظِ غيرِ الحقِّ، يدلُّ على انتفاءِ الحقِّ عنهم

وهو أبلغُ من التَّعبير بالباطل صراحةً؛ لأنَّ ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، يعني: "غيرَ القول المتمكِّن غايةَ التَّمكُّن في درجات الثَّباتِ، ولو قال بدله: باطلًا، لم يؤدِّ هذا المعنى، ولو قالَ: الباطلُ، لقصرَ عنِ المعنى أكثرَ"[1]، ويضافُ إلى ذلك أنَّ التَّصريحَ بلفظ الحقِّ مع نفيه عنهم يفيد النَّصَّ على انتفاء الحقِّ عنهم، ولو عبَّر بالباطلِ؛ لفاتَ التَّصريحَ بانتفاءِ الحقِّ عنهم المفيد تمكُّن الباطلِ منهم.

بلاغةُ العطفِ في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ﴾ ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾:

عطفُ الاستكبارِ على قولِهم غيرِ الحقِّ سببٌ في عذابِ الهونِ

قولُه جلَّ شأنه: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، معطوفٌ على قولِه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، والتَّقدير: "وبما كنتم ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾"[2]، فهو في تأويلِ مصدرٍ "أي: وباستكبارِكم عن آياته"[3]، وهذا للدَّلالةِ على اشتراكِهما في سببيَّةِ الجزاءِ، أي: "العذابُ الشَّديدُ إنَّما حَصَل بسببِ مجموعِ الأمرين: الافتراءِ على الله، والتَّكبُّرِ على آياتِ الله"[4].

فائدةُ تقديمِ جملةِ ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ على ما بعدَها:

من قالَ على اللهِ غيرَ الحقِّ؛ فقد أغضبَ اللهَ، وأظهرَ السَّفاهَ

قولُه جلَّ شأنُه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، ذكرَ اللهُ تعالى سببينِ لعذابهم، فقدَّمَ قولهم غيرَ الحقِّ على الله تعالى، على استكبارِهم عن آياته؛ لأنَّه أعظمُ جُرْمًا، ولأنَّ سياقَ الآية وموضوعَها، هو الحديثُ عن الَّذين يفترون على اللهِ الكذبَ، ويدَّعون الوحيَ، وذلك كلُّه مندرجٌ تحت قوله تعالى: ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، فكان تقديمُهُ أولى، لكونهِ هو موضوعُ الآية.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/191.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/191.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/380.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/69.

سرُّ تكرارِ ﴿كُنتُمْ﴾ في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ﴾ ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ كرَّرَ قوله: ﴿كُنتُمْ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ كلَّ جملةٍ مُسْتَقِلَّةٌ بكونِها سببًا في عذاب الهونِ، فكلُّ سببٍ منهما يقتضي ذلك العذابَ، ولو لم يكرِّرْ ﴿كُنتُمْ﴾؛ لاحْتَمَلَ أن يكون السَّبَبُ واحدًا، ولكنَّهُ سببٌ مركَّبٌ، أي: ذلكَ العذابُ بسببِ أنَّكم افتريتُم، واستكبرتُم، وأمَّا معنى الآية المتحصِّلُ بالتَّكرار: ذلك العذابُ يكون بسبب افترائِكم، ويكون بسببِ استكبارِكم.

تَكْرارُ الفعلِ (كان) يدلُّ على استقلالِ كلِّ سببٍ لاستحقاقِ عذابِ الهونِ

سرُّ التَّعبيرِ بالحرفِ ﴿عَنْ﴾ الدَّالِّ على المجاوزةِ في قوله: ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

جاء الاستكبارُ في الآيةِ "متضمِّنًا الإعراضَ عن الآياتِ؛ ولذا عُدِّيَ بـ ﴿عَنْ﴾ الَّتي تدلُّ على التَّجاوزِ والإعراض؛ إذ قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، أي: كنتُم تستكبرون معرضينَ عن آياتِنا الدَّالة؛ ولأنَّها قاطعةٌ على الحقِّ، وفيها الهداية، ولكن لا تهتدون استكبارًا وإعراضًا، فنالوا جزاءهم"[1]. وهذا يدلُّ على أنَّهم لم يكونوا يريدون أن يسمعوا آياتِ القرآن وحُجَجَهُ، فهم مستكبِرونَ مع إعراضٍ، للدَّلالة على أنَّ كفرَهم كانَ بسببِهم، وليس بقلَّةِ البيانِ في آيِ القرآن.

الاستكبارُ يتضمَّنُ معنى الإعراضِ إعلامًا بشدَّةِ العزوفِ عن الحقِّ

التَّعبيرُ عنِ الآياتِ بالجمعِ دونَ المفردِ بقوله: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾:

عبَّرَ عن الآياتِ الَّتي استكبروا عنها بصيغةِ الجمعِ دون الإفرادِ؛ لأنَّ "من استكبرَ عن آيةٍ واحدةٍ كان مستكبرًا عن الكُلِّ"[2]، وفي الجمع دلالةٌ على شدَّة استكبارِهم، فهم لم يستكبروا عن آية واحدةٍ، بل جميع آياته، وهذا يدلُّ على شدَّةِ كفرِهم ومتانةِ إصرارهم.

مَنِ استكبرَ عن آيةٍ واحدةٍ؛ كانَ مستكبِرًا عن كلِّ الآياتِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/2594.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/192.

علَّةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ على ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾:

الاستكبارُ مذمومٌ، وهو أشدُّ ذمًّا؛ إذا تعلَّقَ بآياتِ اللهِ تعالى

في قوله جلَّ شأنُه: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، قدَّم النَّظمُ شبْهَ الجملةِ ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، وهي متعلِّقَةٌ بخبر كان ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ "لأجل الفواصل"[1]، وتقديمُ شبْهِ الجملة هنا لا يفيد الاختصاصَ؛ إذ إنَّ استكبارَهم لا يختصُّ بالاستكبارِ عنِ الآيات؛ إذ هم قدِ استكبروا عن عبادةِ اللهِ تعالى، وعنِ الإيمان به، فَدَلَّ ذلك أنَّ تقديمَ شبهِ الجملة، كان الغرضُ منه تأخيرَ ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ تحقيقًا للبنيةِ الصَّوتيَّةِ المتناسقةِ الَّتي تثيرُ انتباهَ السَّامع، مع ما فيها من جماليَّةٍ بتحقيقِ الفاصلةِ الواحدة المختومة بنسقٍ صوتيٍّ واحدٍ. ويضاف إلى ذلك أنَّ التَّقديم دليل الاهتمام، تنويهًا على أنَّ الاستكبار مع أنَّه مذمومٌ، إلَّا أنَّه أشدُّ ذمًّا إذا كان استكبارًا وإعراضًا عن آياتِ اللهِ تعالى، وبراهين رُبوبيَّتِه ووَحْدانيَّتِه، فقدَّم الآياتِ تفظيعًا للاستكبارِ عنها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾:

الفعلُ المضارعُ فيهِ دلالةٌ على التَّصويرِ، واستِجْلابِ للصُّورةِ

عبَّرَ بالفعلِ المضارع للدَّلالةِ على أنَّ استكبارَهم كانَ مستمرًّا متجدِّدًا، والاستمرارُ والتَّجدُّد في فعلٍ ما يشيرُ إلى شدَّةِ الإصرارِ ودوامِ الانهماكِ في الفعل، وهذا يتناسبُ مع الاستمرارِ المعبَّر عنه بالفعلِ ﴿وَكُنتُمْ﴾. وذهبَ البِقاعيُّ إلى أنَّه "عبَّر بالمضارع تصويرًا لحالِهم"[2]، ويقال لهم حينئذٍ: الآن تبدأ مجازاتُكم بالعذاب المذلِّ المهينِ جزاءَ ما كنتم تقولون على اللهِ غيرَ الحقِّ، وجزاءَ استكبارِكم عن النَّظرِ والتَّدبُّر في آيات اللهِ الكونيَّة والقرآنيَّة"[3]. وهذا مشهدٌ تصويريٌّ من مشاهدِ القيامةِ، تنخلعُ له القلوبُ، وتقشعرُّ له الأبدانُ، وتناطُ به المصائرُ، وتنجلي على هوله البصائرُ، لِتَعملَ على الوقايةِ

(1) السّمين، الدّر المصون: 5/44.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/192.
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 188.

من ذلِّ ذلك الموقفِ، والاتِّقاءِ من العذاب الهون الَّذي يُسَلَّطُ على كلِّ مُبْطِلٍ ذَميمٍ، ويقع وِزْرُهُ على كلِّ مستكبرٍ أثيمٍ.

إيثارُ التَّعبيرِ بصيغةِ الاستكبارِ دونَ التَّكبُّرِ في قوله: ﴿عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾:

الاستفعالُ للدَّلالةِ على التَّكبُّرِ، كانت بقصدٍ وتقصُّدٍ

جاءَ وصفُ تَكَبُّرِهم عن آياتِ اللهِ تعالى بصيغةِ الاستفعالِ للدَّلالةِ على الطَّلب، "أي: تطلبون الكِبْرَ للمجاوزة عنها"[1]، وبهذه الصِّيغةِ فإنَّ اللهَ تعالى كَشَفَ عن خُبْثِ سَريرتهِم، إذ إنَّهم لم يتكبَّروا وحسب، بل كان التَّكبُّر مطلَبًا لهم، ويدلُّ على ذلك صيغةُ الاستفعالِ الدَّالَّةُ على الطَّلب هنا، وإظهارًا لقصدهِم ذلك الفعل، وأنَّهم لم يفعلوه في حالةِ خلوٍّ في الذِّهن، بل كانوا يتقصَّدون ذلك.

لطيفةُ اللَّفِّ والنَّشرِ في الآية الكريمة:

ردُّ الأعجازِ على الصُّدورِ ردَّ لكلِّ سببٍ للعذابِ على ما يناسبُه

قدَّم النَّظمُ في صَدْرِ الآية الأعمالَ الَّتي وصفها بأنَّها نهايةُ الظُّلم، ثمَّ ذكر في شطرِ الآية الثَّاني سببَ الجزاء الَّذي نالوه لكلٍّ منها على التَّرتيب، حيثُ ذَكرَ الافتراءَ على اللهِ الكذبَ، وادِّعاءَ الوحي، وادِّعاءَ المفتري أنَّه سيُنزِلُ مِثلَ ما أنزلَ اللهُ، ثمَّ بيَّنَ جزاء كلٍّ حسبَ عملِه في ختام الآية، مع جواز ردِّ كلِّ واحدٍ من أسباب العذابِ إلى أصحابها، فقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ يشملُ مِن افترى على اللهِ كذبًا، ومن قال: أوحي إليَّ، وقوله: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، يتعلَّق بمن قال: سأنزلُ مثلَ ما أنزلَ اللهُ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الافتراء) و(الكذب):

الافتراءُ: متعلِّقٌ بالآخَرِ، والكذبُ: متعلِّقٌ بالذَّاتِ وبالآخَرِ

الكذبُ: هو عدمُ مطابقةِ الخبرِ للواقعِ، أو لاعتقاد المخبِرِ لهما على خلافٍ في ذلك، كَمَا أَنَّ الكَذِب ضِدُّ الصِّدقِ، وإن افْتَرقا مِنْ حَيْثُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/192.

النِّيَّةُ والقَصْدُ؛ لِأَنَّ الكاذِبَ يَعْلم أَنَّ مَا يَقُولُهُ كَذِبٌ، والمُخْطِىء لا يَعلَم ... وَقَدِ اسْتَعملتِ العرَبُ الكَذب في مَوْضع الْخَطَأ، قَالَ الأَخْطَلُ:

كَذَبَتْك عَيْنُك أَمْ رَأيتَ بِوَاسِطٍ *** غَلَسَ الظَّلام مِنَ الرَّبابِ خَيَالا[1]

والافتراءُ: أخصُّ منه؛ لأنَّهُ كَذِبُ المرءِ في حقِّ غيره بما لايرتضيه، بخلاف الكذب؛ فإنَّهُ قد يكون في حقِّ المتكلِّم نفسه، ولذا يقال لمن قال: (فعلتُ كذا ولم أفعلْ كذا) غيرَ صادقٍ: هو كاذبٌ، ولا يقال: هو مُفْتَرٍ. وكذا مَن مَدحَ أحدًا بما ليس فيه، يقال: إنَّه كاذبٌ في وصفه، ولا يقالُ: هو مفترٍ؛ لأنَّ في ذلك ممَّا يرتضيهِ المقولُ فيهِ غالبًا، وقال سبحانه حكايةً عنِ الكفَّار: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 21] لزعمِهم أنَّه أتاهم بما لايرتضيه اللّٰه سبحانه مع نسبتهِ إليهِ. وأيضًا قد يَحْسُن الكذبُ على بعضِ الوجوهِ، كالكذبِ في الحربِ، وإصلاح ذات البين، وعدَةِ الزَّوجة، كما وردت به الرِّواية، بخلاف الافتراءِ[2].

الكذبُ: إخبارٌ بخلافِ الحقيقة، وليس مطابقًا للواقعِ، أمَّا الافتراءُ فهو اختلاقُ حدثٍ ليس موجودًا، فهو أشدُّ من الكذب. فالكذبُ يدلُّ على التَّغييرِ، أي: تغيير الحقائقِ والإخبارُ عنها بخلاف ما هي عليه، ولكن هي موجودةٌ، وإن كانت بصورةٍ مخالفةٍ للإخبار، أمَّا الافتراءُ فليس له واقعٌ ولا حقيقة، إذ هو ليس تغييرًا، بل اختلاقٌ وإيجادُ واقعٍ مزيَّفٍ، فكان أَخَصَّ من الكذبِ وأشدَّ منه، وهو الأنسب للتَّعبير عن ادِّعاء الوحي، إذ هو اختلاقُ واقع ليس موجودًا، وليس هو تغييرًا لواقعٍ موجودٍ.

(الغمرات) و(السّكرات):

غـمـرةُ المـوتِ: الـشِّـدَّةُ الشَّديدةُ، وهي أشدُّ من سَكْرَةِ الموتِ

سكرةُ الموتِ: (سكر) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى حَيْرَةٍ، السَّكْرانُ: خلافُ الصَّاحي، وسَكْرَةُ الموت: شِدَّتُهُ. وقولهُ تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ

(1) ابن الأثير، النّهاية: 4/159.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 449 - 450.

﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾؛ سَكْرَةُ الْمَيِّتِ غَشْيَتُه الَّتِي تَدُلُّ الإنسانَ عَلَى أَنَّه مَيِّتٌ[1]. أمَّا غَمَراتُ الموتِ: فمشتقَّةٌ من (غَمَرَ)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَغْطِيَةٍ وَسَتْرٍ في بَعْضِ الشِّدَّةِ، وقيل للشَّدائد: غَمَرَاتٌ، قال تعالى: ﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾[2]، فالغمرةُ مستعملةٌ في الشِّدَّة؛ إذ قد "شاعتِ استعارتُها للشِّدَّة، تشبيهًا بالشِّدَّة الحاصلةِ للغريق، حين يغمرهُ الوادي أو السَّيلُ، حتَّى صارتِ الغمرةُ حقيقةً عرفيَّةً في الشِّدَّة الشَّديدة"[3]. وعليه فإنَّ غمراتِ الموتِ "أشدُّ من سكرات الموت في الحقيقة"[4]، وسياقُ الآية في سورة الأنعامِ في الغِلْظةِ على الظَّالمين؛ فكان وصفُهم عند الاحتضارِ بما ينالهم من الشَّدائد، أدعى للتَّعبيرِ بالغمرات، تنويهًا بشدَّةِ ما يلاقونه.

(البسط) و(المدّ):

المدُّ: اتِّصالٌ باستطالةٍ، والبَسْطُ: نشرٌ وتوسيعٌ، وكلاهما عربيٌّ فصيحٌ

المدُّ مشتقٌّ من: (مَدَّ)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى جَرِّ شَيْءٍ في طُولٍ، وَاتِّصَالِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ في اسْتِطَالَةٍ، مددتُ الشَّيءَ فامتدَّ، والمادَّةُ: الزِّيادة المتَّصلة، ومَدَّ اللّه في عمره، وفي غيِّه، أي: أمهلَهُ وطوَّل له[5]. والبَسْط مشتقٌّ من: (بَسَطَ) وهو أَصْلٌ يدلُّ على امْتِدَادِ الشَّيْءِ، فِي عِرَضٍ أَوْ غَيْرِ عِرَضٍ، وَالْبَسْطَةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ: السَّعَةُ، وبَسْطُ الشَّيء: نشره وتوسيعه، وبَسْطُ الكفِّ يستعمل تارةً للطَّلب، وتارة للأخذ، نحو: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾. فالمدُّ يدلُّ على الاتِّصال باستطالةٍ، أمَّا البسط فيدلُّ على النَّشر والتَّوسيع والمدِّ، ومنه بسط اليد للأخْذ، وهو المناسب للآية؛ إذ هي في سياق قبْضِ الأرواحِ، وهو مدُّ اليدِ للأخذ، وهذا مدلولُ البسطِ.

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سكر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (غمر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/377.
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 4/212.
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (مدّ، مدد).

(الاستكبار) و(التَّكبُّر):

الاستكبارُ: طلبُ الكِبْر من غيرِ استحقاقٍ، والتَّكبُّر: قد يكون باستحقاقٍ؛ ولذلك جازَ في صفة الله تعالى: المتكبِّر، ولا يجوز: المستكبر[1]، والاستكبارُ قسمان: **أحدُهما**: أن يتحرَّى المرءُ أن يكون كبيرًا، وذلك متى كان على ما يجبُ، وفي المحلِّ والوقت الَّذي يجبُ، فهو غيرُ مذموم. **والثَّاني**: أن يتشبَّعَ، فيُظهِرَ من نفسه ما ليس له، وهو مذمومٌ، ومنه ما وردَ في القرآن نحو: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾[2]. وفي الآية عبَّرَ بالاستكبارِ عنهم؛ لأنَّهم طلبوا الكِبْرَ من غير أن يستحقُّوهُ، فكان أنسبَ من التَّعبير بـ (يتكبَّرون).

التَّكبُّر والاستكبارُ: كلاهما مذمومٌ، لما فيهما من التَّطاولِ والتَّعالي

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 49.

(2) زين الدّين المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 49.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 11 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-63-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 11 : سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-63-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»